الدين وبناء الإنسان: تاملات في المفهوم والأبعاد الفردية والاجتماعية

م . د . فاضل خلف كرم الشرع
جامعة الكوفة – مركز دراسات الكوفة

Religion and Human beings: Reflections on the Concept and Its dimensions on Socials and individuals

Dr . Fadel Khalaf Karam

Abstract : This research explores the topic of religion and human development: reflections on the concept and its individual and social dimensions, through a comprehensive study that combines conceptual, functional, and critical perspectives. The research begins by outlining the origins, definition, and sources of religion, then moves to the concept of religiosity and the need for religion, clarifying its importance in the lives of individuals and society. It also presents the individual and social benefits of religion, highlighting its role in shaping human character, regulating behavior, and instilling moral and social values. The research further examines the relationship between science and religion, emphasizing their complementarity in serving humanity, before discussing the dangers of misunderstanding and exploitation, and the resulting negative social, political, and intellectual consequences. The research employs a descriptive, analytical, and critical approach, combining classical texts with philosophical analysis, to conclude that religion is an indispensable constructive force in human life, and that a correct understanding of it is the guarantee for building a balanced individual and a cohesive society.

المستخلص : تتناول هذه الدراسة فلسفة بناء الإنسان من منظور ديني رسالي، متجاوزةً الأطر الكلامية الجدلية التقليدية نحو رؤية وظيفية تربوية وبنائية، تؤكد أن الجانب التربوي والسلوكي للدين لا يقل أهمية عن جانبه العقائدي والفكري. وقد اعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي النقدي،

Article history
Received: 5/4/ 2026
Accepted: 9/6/ 2026
Published : 30 /6/2026

تواريخ البحث
تاريخ الاستلام : **2026/4/5**
تاريخ القبول: **2026/6/9**
تاريخ النشر :**30/ 2026/6**

الكلمات المفتاحية :
الدين . التدين . الفطرة . العلم . البناء الاجتماعي.

Keywords :
Religion, Religiosity, Human Nature, Science, Social Construction

© 2023 THIS IS AN OPEN ACCESS ARTICLE UNDER THE CC BY LICENSE
http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/

Corresponding author:
Fadel Khalaf Karam
fadhilk.alsharea@uokufa.edu.iq

DOI:
https://doi.org/10.61710/5xdqad45

وتوزّع على أربعة مباحث رئيسة: المبحث الأول: تناول الأسس القرآنية والنبوية لصناعة الشخصية الإنسانية، مبرزاً دور الوحي في صياغة الإنسان المتوازن. المبحث الثاني: بحث في أثر التدين المستقر كآلية لتهذيب الغرائز وتنمية البناء الفطري. المبحث الثالث: انتقل إلى الأبعاد الاجتماعية، مبيّناً قدرة الدين الفريدة على حل «المشكلة الإنسانية» عبر التوفيق بين الدوافع الذاتية والمصالح العامة. المبحث الرابع: اختتم ببيان التكامل المعرفي بين العلم والدين، محذّراً من مخاطر سوء الفهم والاستغلال السياسي الذي يُفرغ الدين من محتواه النهضوي. وتخلص الدراسة إلى أن الفهم الصحيح لمقاصد الشريعة هو الضمانة الحقيقية لبناء فرد متوازن ومجتمع متماسك، إذ يوفر ذلك استجابة فعّالة لتحديات العصر وقيم المادية، ويعيد للإنسان إنسانيته وجوهره الأخلاقي النبيل. كما تؤكد أن الدين، حين يُفهم فهماً وظيفياً وتربوياً، يغدو مشروعاً عملياً لصناعة الإنسان في أبعاده كافة، ويضمن استدامة البناء الحضاري القائم على قيم الحق والعدل والتكافل.

المقدمة : تُعدُّ الظاهرة الدينية من أبرز الظواهر الإنسانية التي لا تنفك عن ماهية الإنسان، إذ رافقته منذ نشأته الأولى ولم يخلُ تاريخ أمة أو حضارة من حضورها. فهي ليست مجرد منظومة من العقائد والطقوس، بل هي قوة شاملة تُسهم في وصياغة الفرد و بناء المجتمع، وتحدد علاقة الإنسان بذاته وبالآخرين وبالوجود من حوله. ومن هنا تنبع أهمية البحث في دور الدين بوصفه إطاراً حضارياً وأخلاقياً يهدف إلى بناء الإنسان فرداً وجماعة. غير أن الإشكالية المعاصرة تكمن في كيفية إسهام الدين في إعادة التوازن للفرد والمجتمع في ظل هيمنة المادية الطاغية، التي كثيراً ما تُقصي البعدين الروحي والأخلاقي وتختزل الإنسان في بعده النفعي والاستهلاكي. إنّ هذا التحدي يفرض إعادة النظر في الوظيفة الاجتماعية للدين، بوصفه قوة قادرة على تحقيق التوازن النفسي والاجتماعي، وتعزيز قيم التضامن والعدالة، وإحياء المعنى في حياة الإنسان. لقد تعددت التفسيرات حول نشأة الدين بين اتجاه مادي يراه انعكاساً لعوامل نفسية واجتماعية مثل الخوف من الطبيعة والجهل بأسبابها، واتجاه إلهي يراه نزعة فطرية أصيلة تربط الإنسان بالمطلق وتمنحه معنى لوجوده. أما تعريفه فقد دار في اللغة حول الجزاء والطاعة، بينما عُرّف في الاصطلاح بأنه: «الأصول والعقائد والأحكام التي تساير الفطرة ولا تخالفها واحدة منها» (السبحاني، ص. 537). ولمن أراد التوسع في هذه القضايا يمكن الرجوع إلى كتاب "علم الكلام المعاصر الجزء الأول تأليف الدكتور الشيخ عبد الحسين خسروبناه بترجمة محمد حسين الواسطي" إذ وردت هذه المسائل ببيان مفصل وتحليل أعمق. يتناول البحث الدين من زاويته الاجتماعية الواقعية، بعيداً عن الجدل العقائدي، وذلك من خلال إبراز دوره في بناء الإنسان وتحقيق التوازن النفسي والاجتماعي، والكشف عن البعد الوظيفي للدين في حياة الفرد والمجتمع، والتنبيه إلى خطورة الانحراف في فهمه أو استغلاله خارج مقاصده الأصيلة. وقد اعتمدت

منهجية البحث المنهج الوصفي التحليلي، مدعومة بالمقاربة التأملية لإبراز البعد الكامن في علاقة الدين ببناء الإنسان، إضافة إلى المنهج النقدي في تناول قضية سوء الفهم أو استغلال الدين لما لها من انعكاسات سلبية. وتتمثل أهداف البحث في بيان دور الدين وفوائده في بناء الإنسان وتربيته على المستوى الفردي والاجتماعي، وتقديم مقاربة تُظهر كيف يسهم الدين في بناء الإنسان أخلاقياً وروحياً واجتماعياً، بما يعيد التوازن في مواجهة المادية المهيمنة.

المبحث الأول: بناء الإنسان في المنظور الإسلامي

يحتل بناء الإنسان في المنظور الإسلامي موقعاً محورياً في المشروع الرسالي، إذ يُعد الغاية الكبرى التي من أجلها نزلت الشرائع وبُعث الأنبياء. فالإسلام، بوصفه ديناً خاتماً موجهاً إلى عموم البشرية، لم يقتصر على معالجة الانحرافات الأخلاقية أو إصلاح السلوك الفردي، بل سعى إلى صياغة إنسان مؤمن قوي، قادر على المشاركة الفاعلة في بناء حضارة إنسانية راقية قائمة على العدل والمحبة والأخوة. ومن هنا، فإن الحديث عن بناء الإنسان لا يُعد ترفاً فكرياً، بل هو مدخل أساس لفهم طبيعة المشروع الإسلامي في شموليته وتكامله. ولأجل ذلك، يتطلب البحث في هذا الموضوع الوقوف عند جملة من المحاور الرئيسة التي تشكل ركائز البناء، وهي:

أولاً: مرجعية القرآن والسنة النبوية

يُجمع الفكر الإسلامي على أنّ القرآن الكريم هو الأساس الأول في بناء الإنسان، فهو كتاب تربية وصناعة إنسان قبل أن يكون كتاباً لمعالجة المسائل التجريبية، «إنّ القرآن أولا وقبل كلّ شيء هو كتاب تربية وتقويم لأن اللّه تعالى رب العالمين المربي لهم والمقوم ، ووسيلته الأولى في التربية التعاليم المنزلة ، وأهمهما القرآن الكريم فهو يربي ويسعد وينظم العلائق لتؤهل الفرد والمجتمع للسعادة في الدارين». وهو هدف واضح في كلّ الأحكام التي هي روح القرآن» (التسخيري، 2003، ص. 143). وقد تجسد هذا البناء عملياً في التجربة النبوية بالمدينة المنورة، إذ عمل الرسول (ص) على صياغة الإنسان الرسالي الذي أصبح عماد الحضارة الإسلامية، جامعاً بين الإيمان والمعرفة والشجاعة والإدارة في بوتقة واحدة.

ثانياً: شمولية البناء الإسلامي.

يمتاز البناء الإسلامي للإنسان بالشمولية والتوازن، فهو لا يقتصر على جانب واحد من شخصية الإنسان، بل يتناولها في مختلف أبعادها الفكرية والنفسية والأخلاقية والاجتماعية، بما يضمن تكوين شخصية متكاملة قادرة على التفاعل الإيجابي مع ذاتها ومجتمعها. «من خلال إلقاء نظرة على الآثار والنصوص والأحاديث الواردة عن النبي الأكرم محمد (ص) والأئمة الأطهار (عليهم السلام) نستطيع اكتشاف مدى الإستيعاب والشمول لهذه الشريعة التي لم تترك شيئا في مجال بناء الإنسان

وتربيته إلّا وقد بيّنته بكل تفاصيله. وخير شاهد ودليل على ما نقوله ما ورد من الأحاديث في مجال حقوق الناس وكيفية معاشرتهم، وحقوق الفقراء والمساكين، وحقوق الوالدين، وآداب التعامل مع مختلف طبقات البشر (كالزوج والزوجة ، والأولاد ، والجيران ، واليتامى و . . .)» (المجلسي، 2003، ص. 7). إنّ هذه النصوص تمثل التطبيق العملي لشمولية البناء الإسلامي، إذ تتكامل الأبعاد الفكرية والنفسية والأخلاقية والاجتماعية في منظومة واحدة تهدف إلى صناعة الإنسان الكامل. وتتجلى هذه الشمولية في أربعة أبعاد رئيسة:

١ – البعد الفكري: تحرير العقل من الأوهام وإعادة بنائه على أساس الوعي الكوني الجديد، مع التأكيد على حرية الإرادة كوديعة فطرية في تكوين الإنسان.

٢ – البعد النفسي: تحقيق الطمأنينة الداخلية عبر ذكر الله، الذي يمثل رأس مال المؤمن ودواءً لأمراض النفوس، ويُسهم في إنارة القلب والفكر.

٣ – البعد الأخلاقي: تأسيس منظومة أخلاقية قائمة على المسؤولية والجزاء، إذ تتحول الممارسات المتكررة إلى ملكات راسخة في شخصية الإنسان، فتغدو جزءاً من وجوده وكينونته.

٤ – البعد الاجتماعي: تحويل الفرد من الانغلاق على ذاته ومصالحه الخاصة إلى الانفتاح على مصالح المجتمع، بما يحقق التوازن بين الدوافع الذاتية والمصلحة العامة. وغيرها من التعاليم الأخلاقية السامية التي أنارت للبشرية طريقها إلى الحقّ والصواب»

ثالثاً: الاهتمام بالمؤسسات الاجتماعية والتعليمية

يعتمد مشروع البناء الإسلامي في بناء الفرد والمجتمع على المؤسسات الاجتماعية والتعليمية التي تُعدّ الركائز الأساسية في صياغة شخصية الإنسان وضمان استدامة القيم الدينية والأخلاقية في المجتمع. فقد أولى الإسلام اهتماماً بالغاً بهذه المؤسسات، إدراكاً منه أنّ الإنسان لا ينمو في فراغ، وإنما يتشكل في بيئة اجتماعية وثقافية تتداخل فيها الأسرة، والمرأة، والتعليم، لتكوّن معاً منظومة متكاملة لصناعة الإنسان الصالح ومن هذه المؤسسات:

أ– الأسرة: يعدُّ الإسلام الأسرة النواة الأولى في بناء الإنسان والتي تحتضن الفرد منذ ولادته، وهي البيئة التي تُغرس فيها القيم والمبادئ الأساسية. وقد حمّل الإسلام الوالدين مسؤولية جسيمة في تربية الأبناء، إذ اعتبرهما القدوة الأولى التي تُصاغ من خلالها شخصية الطفل. فالأسرة ليست مجرد إطار بيولوجي، بل هي مؤسسة تربوية تُنشئ الإنسان على الصلابة الأخلاقية، وتحصّنه ضد الانحرافات والشهوات، وتمنحه القدرة على مواجهة الضغوط الخارجية. وقد روي عن رسول اللع ﷺ انه قال: «وما من شئ أحب الله الله عز وجل من بيت يعمر في الاسلام بالنكاح وما من شئ أبغض إلى الله عز وجل من بيت يخرب في الاسلام بالفرقة يعني الطلاق»(البروجردي، د.ت، ج. 20، ص.

6)فالأسرة هي المدرسة الأولى التي تصوغ شخصية الإنسان، إذ يتحمل الوالدان المسؤولية الكبرى في إعداد إنسان قوي الإيمان لا يخضع للشهوات.

ب – المرأة: يعطي الإسلام للمرأة دوراً مهماً في عملية بناء الإنسان، بل جعلها محوراً أساسياً في صياغة الأجيال وإحياء الروح الإنسانية في المجتمع. فهي الأم والمربية والزوجة، التي تُسهم في غرس القيم الروحية والأخلاقية في نفوس الأبناء، وتشارك الرجل في مسؤولية بناء المجتمع. وقد ورد في النصوص الإسلامية العديد من النصوص التي تبرز مكانتها كعنصر بنائي لا غنى عنه كالرجل في المشروع الحضاري الإسلامي، وقد قرنها القرآن الكريم في كثير من الآيات القرآنية مع الرجل كما في قوله تعال: « إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَالْقانِتِينَ وَالْقانِتاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِراتِ وَالْخاشِعِينَ وَالْخاشِعاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِماتِ وَالْحافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحافِظاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِراتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً »(الاحزاب: 35). فهي شريكة أساسية في عملية البناء، إذ تُعدّ البانية للروح الإنسانية في الأمة، وغياب دورها يؤدي إلى الانحطاط الاجتماعي.

ج – الجمع بين العلم والايمان: عدّ الإسلام العلم أداة مركزية في بناء الإنسان، لكنّه شدّد على أنّ العلم وحده لا يكفي لصناعة شخصية متكاملة. فالتربية العلمية الخالصة قد تُنتج نصف إنسان، بينما الإيمان هو الذي يصوغ الشخصية في مختلف أبعادها الفكرية والنفسية والأخلاقية. ومن هنا جاء التأكيد على تكامل دور الجامعي وعالم الدين معاً، إذ يتضافر العلم مع القيم الروحية لتشكيل إنسان قادر على الإبداع والإصلاح، من غير أن يفقد بوصلته الأخلاقية. وقد مدح القرآن الكريم العلماء والذين يحملون صفة الإيمان مع العلم كما في قوله تعالى: «وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ»(الروم: 56).

رابعاً: اعتماد المنهج الواقعي في البناء

يمتاز الاسلام بالمنهج الواقعي في بناء الإنسان و بموضوعيته، فهو ينظر إلى الإنسان بكونه موجوداً حيّاً له ظروفه وتحدياته وله استعداداته المختلفة وقدراته المحدودة. ومن هنا، فإن عملية البناء في الإسلام ليست عملية قسرية أو مفروضة من الخارج، وإنما هي مسار تدريجي متكامل يراعي طبيعة الإنسان ويستجيب لحاجاته الروحية والعقلية والاجتماعية. وقد تجلّى هذا المنهج الواقعي في ثلاث آليات رئيسة تُشكّل أدوات التغيير والبناء:

١ – دور العقل في البناء: يُقرّ الإسلام بأصالة العقل ودوره المحوري في بناء الكيان الإنساني، إذ يُعدُّ العقل أداة التمييز بين الحقّ والباطل، والوسيلة التي ترفع الإنسان فوق سلطة الأهواء والشهوات وقد روي عن أبي عبداللّه عليه السلام قال في بيان اهمية العقل في الاسلام إنّه قال: «إنّ اللّه خلق العقل فقال له: أقبل فأقبل، ثمّ قال له: أدبر فأدبر، ثمّ قال له: وعزّتي وجلالي ما خلقت شيئاً

أحبُّ إليَّ منك، لك الثواب وعليك العقاب» (المازندراني، 2004، ج. 1، ص. 33). غير أنّ هذا الاعتراف بأصالة العقل ودوره مشروط بقدرته على السمو، فلا يكون العقل مجرد أداة لتحقيق المصالح المادية، بل قوة بنائية تساهم في صياغة شخصية متوازنة قادرة على إدراك الغايات العليا للوجود.

٢ – مبدأ التدرج في البناء: اعتمد الإسلام مبدأ التدرج في بناء الإنسان ونشر الرسالة، وهو منهج واقعي يراعي طبيعة البشر واستعداداتهم. فقد بدأ القرآن الكريم في مكة بالتركيز على العقائد وتغيير الأفكار، ثم جاءت التشريعات العملية في المدينة لتنظيم حياة الفرد والمجتمع. كما بدأ النبي ﷺ دعوته بالاقربين: «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ»(الشعراء: 214) ثم وسّعها تدريجياً لتشمل الناس كافة: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ»(سبأ: ٢٨) وصولاً إلى الملوك والرؤساء، مؤكداً عالمية الرسالة منذ بدايتها. كذلك تنوعت أساليب الدعوة بين القول اللين والموعظة الحسنة: «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ»(النحل: 125) ثم المقاطعة السلمية، وأخيراً الدفاع المشروع ضد المعتدين. إنّ هذا التدرج في العقيدة والتشريع والأسلوب جسّد حكمة الإسلام في التيسير وضمان نجاح الرسالة، وأثبت أنّه دين الفطرة الذي يخاطب الإنسان وفق مراحل نموه وظروفه الواقعية

٣ – مبدأ القدوة والأسوة الحسنة في البناء: يبرز في المنهج الإسلامي دور القدوة والأسوة الصالحة في بناء الإنسان، إذ تُعدّ الإمامة والقيادة الرسالية من أهم عناصر البناء. فالإنسان منذ طفولته يحتاج إلى نموذج عملي يجسد القيم التي يتعلمها نظرياً، ومن هنا جاء التأكيد على دور الأئمة والقيادات الرسالية في صياغة شخصية الإنسان وتوجيه مساره. إنّ اتخاذ القدوة وسيلة للارتقاء يُعد من أبرز آليات التغيير والبناء؛ لأنّه يربط النظرية بالممارسة ويجعل القيم حية متجسدة في الواقع. وكان رسول الله ﷺ خير قدوة لكلّ انسان قال تعالى: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا»(الاحزاب: ٢١)

المبحث الثاني: التدين ودوره في توجيه السلوك وتنظيم الفطرة

في هذا المبحث سنتناول التدين من زاويته التربوية والسلوكية، لا من زاويته الفكرية العقائدية أو الكلامية؛ إذ إنّ البحث في الجوانب الكلامية والعقائدية قد أُفرد له مجال واسع في الدراسات المتخصصة، ومن أراد التوسع فيها فليراجع كتاب "علم الكلام المعاصر الجزء الاول تأليف الدكتور الشيخ عبد الحسين خسروبناه بترجمة محمد حسين الواسطي" أما هنا فإنّ التركيز سيكون على الدور التربوي للتدين في توجيه السلوك وتنظيم الفطرة الإنسانية بما يجعل القيم الدينية إطاراً عملياً ينعكس على حياة الفرد والمجتمع. فالتدين يعدّ إطاراً قيمياً شاملاً يوجه السلوك الإنساني ويضبط مساره وفق

مبادئ راسخة تستمد مشروعيتها من العقيدة. فالفطرة الإنسانية تحمل استعداداً أصيلاً لتقبل القيم العليا، غير أنّ هذا الاستعداد يحتاج إلى منظومة عملية ترشده إلى الاتجاه الصحيح، وهنا يبرز دور التدين في تحويل الميل الفطري إلى سلوك منظم ينسجم مع مقاصد الدين والشريعة. إن التدين يوفر للإنسان بوصلة أخلاقية تحدد له معايير الصواب والخطأ، وتجعله قادراً على التمييز بين ما ينفعه وما يضره في حياته الفردية والاجتماعية. ومن خلال هذا التوجيه، يصبح السلوك الإنساني أكثر اتزاناً، بعيداً عن العشوائية أو الانقياد للظروف الطارئة. فالتدين يربط بين المعرفة والإرادة، ويحول القيم النظرية إلى ممارسات عملية تعكس أصالة الفطرة وتحقق الانسجام بين البعد الروحي والبعد العملي. كما يسهم التدين في بناء منظومة اجتماعية متماسكة، إذ يرسّخ القيم المشتركة ويجعلها أساساً للتفاعل بين الأفراد، فيغدو المجتمع أكثر قدرة على مواجهة التحديات بروح جماعية قائمة على الالتزام والوعي. ومن هنا يظهر أن التدين ليس مجرد شعور داخلي، بل هو قوة لتنظيم الفطرة وتوجيه السلوك، ليكون الإنسان أكثر قدرة على تحقيق التوازن النفسي والاجتماعي، ويصبح الدين عاملاً أساسياً في صياغة حضارة قائمة على القيم والالتزام. ولأجل إبراز هذا الدور البنائي للتدين، يمكن تناول الموضوع في ثلاثة مطالب رئيسة، يتضح من خلالها كيف يسهم التدين في ترسيخ القناعة الداخلية، وفي توجيه السلوك وتنظيم الفطرة، ثم في تهذيب الغرائز وضبطها بما يحقق التوازن النفسي والاجتماعي.

اولا: التدين كمنهج في بناء الإنسان

يُعدّ التدين الوجه العملي للدين، فهو المنهج الذي يحول القيم والمبادئ من إطارها النظري إلى سلوك واقعي ينعكس في حياة الإنسان اليومية. فالدين يضع الأسس العقدية والقيم العليا، بينما التدين يُترجم هذه الأسس إلى التزام عملي يظهر في العقيدة والعمل معاً. وبهذا يصبح التدين معياراً لصدق الإيمان، إذ يربط بين الإيمان القلبي والتجسيد السلوكي، ويجعل الدين قوة في بناء شخصية الفرد وفي بناء علاقاته الاجتماعية. وقد أُشير في هذا السياق إلى أنّ: «المعلوم أنّ معنى التدين والالتزام أمر زائد على العلم، فربما يعلم الشخص أمرا ولا يعقد قلبه عليه بل يبني على خلافه عنادا وجحودا أو لا يبني لا عليه ولا على خلافه» (الطباطبائي اليزدي، 1426 هـ، ج. 1، ص. 649). وهذا النص يوضح أنّ التدين يتجاوز مجرد المعرفة النظرية، إذ لا يكفي أن يعلم الإنسان الحقّ ما لم يلتزم به قلبًا وسلوكًا، فالعلم وحده لا يحقق التدين ما لم يقترن بالعمل والإيمان الصادق. وبذلك يظهر أنّ التدين هو المنهج الذي يضمن انتقال الدين من مستوى المفاهيم إلى مستوى الممارسة، ويجعل العقيدة حاضرة في حياة الإنسان اليومية، فيتحول الدين إلى قوة فاعلة في بناء الفرد والمجتمع، ويغدو أداة تربوية لتشكيل السلوك وفق القيم الإلهية والفطرية.

ثانيا: اثر التدين المستقر في بناء الانسان

إنّ التدين حين ينبثق من قناعة داخلية راسخة في النفس، يغدو أكثر ثباتاً وعمقاً، ويُشكل عنصراً أساسياً في بناء شخصية الإنسان. أما التدين الناشئ عن تأثير خارجي أو سلوك جمعي، فإنه يظل هشاً غير مستقر، معرضاً للزوال اذا خلا من الممارسة المستمرة والتأصيل العملي ؛لأنّه يبقى عارضاً على الإنسان ولم يتحول إلى جزء من ذاته. وفي هذا السياق وردّ في تفسير العياشي: «عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت: "هو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع" قال: ما يقول أهل بلدك الذي أنت فيه؟ قال: قلت: يقولون مستقر في الرحم ومستودع في الصلب، فقال: كذبوا، المستقر ما استقر الإيمان في قلبه فلا يُنزع منه أبدا، والمستودع الذي يُستودع الإيمان زماناً ثم يُسلبه» (العياشي، ج. 1، ص. 371). إنّ هذا النص يوضح بجلاء أنّ الإيمان قد يكون راسخاً مستقراً في القلب، وقد يكون مستودعاً عارضاً يمكن أن يُسلب إذا لم يُدعَّم بالثبات واليقين. ومن هنا يتضح أنّ التدين ليس حالة واحدة، بل درجات ومستويات، وأنّ بناء الإنسان يتطلب ترسيخ التدين الذاتي المستقر ليكون أكثر رسوخاً وأصالة، بعيداً عن التدين العرضي الذي يفتقر إلى العمق والاستقرار. فالتدين المستقر هو الذي يحوّل القيم إلى سلوك دائم، ويجعلها جزءاً من بنية الشخصية، فيغدو أساسا لبناء إنسان متوازن قادر على مواجهة التحديات بروح ثابتة وإيمان راسخ.

ثالثا: دور التدين في تهذيب الغرائز وتنظيم الفطرة

إنّ التدين ليس حالة طارئة أو مكتسبة بالكامل، بل هو جزء أصيل من طبيعة الإنسان، مغروس في كيانه منذ أن خلقه الله تعالى. فقد فطر الإنسان على الدين والتدين، قال عزّ شأنه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (الروم: 30)، ولهذا لا توجد جماعة قط بغير دين» (آل عبد الجبار، 1430 هـ، ص. 4). ويُعدّ التدين امتداداً طبيعياً للفطرة الإنسانية، لكنّه لا يقف عند حدود الاستعداد الفطري، بل يتجاوزها إلى الالتزام العملي الذي يوجّه السلوك ويهذّب الغرائز. فالإنسان إذا لم يعمل بما علم، تبقى معرفته بلا أثر وإيمانه بلا عمل. ومن هنا تأتي أهمية التدين في تحويل النزوع الفطري نحو الإيمان إلى التزام واقعي ينعكس على حياة الفرد والمجتمع. فالفطرة تدفع الإنسان إلى البحث عن الحقّ والإيمان، بينما التدين يضبط هذه الدوافع ويهذّب الغرائز، ليجعلها طاقة بنائية لا عائقاً أمام النمو. وهكذا يظهر البعد البنائي للتدين، إذ يجعل الدين قوة فاعلة في صياغة شخصية الإنسان أخلاقياً ومعنوياً، ويمنحه القدرة على الانسجام مع ذاته ومع الآخرين، ويؤسس في الوقت نفسه لقيام مجتمع متماسك يقوم على أساس القيم المشتركة والالتزام العملي بها. إنّ التدين هو حلقة الوصل بين المفاهيم النظرية للدين والأبعاد الفردية والاجتماعية، وهو الذي يحوّل الدين إلى واقع معاش يسهم في بناء الإنسان معنوياً وأخلاقياً واجتماعياً، ويضمن في الوقت ذاته ضبط الغرائز وتنظيم الفطرة بما يحقق التوازن النفسي والاجتماعي.

المبحث الثالث: دور الدين في بناء الفرد والمجتمع

يمثل الدين أحد المرتكزات الأساسية والأصيلة في عملية بناء الإنسان، إذ يجمع في رؤيته الشمولية بين البعد الفردي الذي يتجلى في صياغة شخصية الفرد وضبط سلوكه، والبعد الاجتماعي الذي يظهر في توحيد الجماعة الإنسانية وتعزيز روابطها. ومن خلال هذا التلاقي الوثيق بين الفرد والمجتمع، يغدو الدين منظومة متكاملة قادرة على توجيه الحياة الإنسانية برمتها نحو الخير والفضيلة، وتحقيق التوازن المنشود الذي يقي البشرية من التشتت والاضطراب.

أولاً: فوائد الدين على مستوى الفرد

١ – يمثل الدين أحد الركائز الأساسية في بناء شخصية الفرد وتنظيم حياته على المستويين المادي والمعنوي؛ إذ لا يقتصر دوره على ضبط السلوك الخارجي، بل يمتد ليشمل توجيه الباطن وصياغة الضمير، بما يضمن للإنسان التوازن بين حاجاته الجسدية ومتطلباته الروحية. فالأحكام الدينية ليست مجرد تكاليف شكلية أو طقوس جامدة، بل هي منظومة متكاملة تهدف إلى تربية الإنسان وتوجيهه نحو الكمال. وقد جاء في النص: «إن الأحكام العبادية من قبيل الصلاة والصوم والحج قد شُرعت لبناء الإنسان وهدايته إلى السبل التي تؤدّي به إلى مراتب الكمال» (المنتظري، 1425 هـ، ص. 178). وهذا يوضح أنّ العبادات في المنظور الإسلامي ليست غاية في ذاتها، وإنما وسائل تربوية رفيعة ترمي إلى ترقية الفرد في مدارج السمو المعنوي والأخلاقي. فالصلاة تغرس روح الانضباط والارتباط الدائم بالله، وتزرع في النفس الخشوع والسكينة، بينما يربي الصوم على الصبر وكبح جماح الشهوات، ويذكّر بالحاجة إلى الرحمة والتكافل مع الفقراء والمحرومين. أما الحج، فهو مدرسة جامعة تُعيد الفرد إلى جذور التوحيد، وتُجسد له أسمى صور المساواة والعبودية، إذ يتجرد من مظاهر الدنيا ليقف أمام الله خاشعاً متواضعاً. وبذلك تُصبح هذه العبادات وسائل عملية لبناء الفرد من الداخل والخارج، وتعيد صياغة حياته وفق منظومة قيمية متكاملة، تجعل الدين قوة موجهة في مسيرة الإنسان الفردية نحو الكمال، وتحوّل القيم النظرية إلى ممارسات عملية تعكس أصالة الفطرة وتحقق الانسجام بين البعد الروحي والبعد العملي.

٢ – يُعدّ الدين عاملاً أساسياً في حياة الفرد، إذ يقوم بدور محوري في حث الإنسان على التمسك بالأخلاق الفاضلة وتنمية الحس الإنساني، وهو جانب لا تستطيع العلوم الوضعية أو المناهج التجريبية أن تُنميه أو تُحكم السيطرة عليه بالقدر الذي يحققه الدين. فالأخلاق ليست مجرد سلوكيات ظاهرية أو أعراف اجتماعية، بل هي ثمرة تربية روحية عميقة، يزرعها الدين في وجدان الإنسان ويغرسها في ضميره، لتصبح قوة داخلية رادعة تدفعه نحو الخير وتُبعده عن الشر. وقد عبّر الحكماء عن هذه الحقيقة بقولهم: «فإن النفس الآبية إنما يحملها على إتيان الأخلاق الفاضلة دين أو مروءة» (ابن عربي، 1972م، ج. 1، ص. 149). وهو نص يكشف أنّ الدافع الحقيقي وراء التزام الإنسان بالفضائل إنما هو إيمان راسخ أو مروءة أصيلة، وكلاهما ينبع من قيم عليا لا يمكن للعلوم المادية

وحدها أن تُنشئها أو تُرسّخها. ومن هنا يظهر أنّ الدين يغرس الأخلاق الفاضلة في النفس ويحوّلها إلى قوة داخلية رادعة، إذ لا يكتفي بالمظاهر الاجتماعية الخاضعة للقانون، بل يزرع في وجدان الإنسان دافعاً أصيلاً نحو الخير يجعله يلتزم بالفضيلة حتى في خلواته، ويجعل من الأخلاق جزءاً لا يتجزأ من البناء الروحي والعملي لشخصيته.

٣ – يعمل الدين على تنظيم أنشطة الغرائز الفردية وتأديبها بما يحقق التوازن النفسي والروحي، ويحول دون انحرافها عن مسارها الصحيح. فالغرائز بطبيعتها قوة دافعة في حياة الإنسان، لكنّها إذا تُركت بلا ضابط قد تتحول إلى عائق أمام نموه الروحي والأخلاقي. ومن هنا تأتي وظيفة الدين في توجيه هذه الغرائز وضبطها بما يضمن للإنسان الانسجام الداخلي والقدرة على التحكم في دوافعه. وقد جاء في النص: «إنّ من مهام الدين التي لا تنفصل عنه: تنظيم أنشطة الغرائز الفردية، وتنظيم العلاقات الاجتماعية، وأنشطة الغرائز لوحدها ذات بعدين: فردي تنعكس آثاره على الفرد ذاته، واجتماعي تمتد آثاره إلى المجتمع لتظهر في طبيعة علاقاته» (مركز الرسالة، ص. 5). ومن خلال هذا التنظيم يظهر البعد الفردي في ضبط الغرائز باعتباره الأساس الذي يُعيد صياغة شخصية الإنسان ويمنحه القدرة على التحكم في دوافعه، بما ينعكس إيجاباً على حياته الخاصة ومسيرته نحو الكمال.

٤ – يمد الدين عقل الإنسان بما يعجز العقل وحده عن إدراكه من القضايا الغيبية وما وراء الطبيعة، إذ لا يستطيع الإنسان أن يستغني بالعقل المجرد عن الدين في مسائل العقيدة والإيمان والعبادة. فالعقل وحده لا يكفي لإخراج الإنسان من ظلمات الجهل إلى نور الهداية، كما قال تعالى في شأن القرآن الكريم: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (إبراهيم: 1). ومما يدل على اهتمام الدين بالعقل أن القرآن الكريم أشار إليه كثيرا، تأكيداً على مكانته ودوره في إدراك الحقائق والتأمل في آيات الكون. فالدين لا يُقصي العقل، بل يمنحه قيمة رفيعة، ويدعوه إلى التفكر والتأمل، ويجعله شريكاً في فهم الحقائق الكبرى وتنظيم شؤون الحياة. وبذلك يصبح الدين إطاراً جامعاً يوازن بين حدود المعرفة العقلية والمعارف الدينية، ليصل بالإنسان إلى معنى أسمى لوجوده. فالدين، منظومة الهية واضحة توازن بين مقتضيات العقل ونزعات النفس، فلا يطغى أحدهما على الآخر. وقد أشار القرطبي في تفسيره إلى هذه الحقيقة بقوله: «فإن الإنسان مضطر إلى الشرع، فإنه بين حركتين: حركة يجلب بها ما ينفعه، وحركة يدفع بها ما يضره» (التميمي، 1997م، ص. 167). وهذا يبيّن أنّ الدين هو الضابط الذي يوجه الإنسان في سلوكه وقراراته، فلا يتركه أسيراً لتقلبات العقل أو اندفاعات النفس.

ثانياً: فوائد الدين على المستوى الاجتماعي

لا يقف أثر الدين عند حدود الفرد، بل يتجاوز ذلك ليشكل قوة فاعلة في بناء حياة الجماعة الإنسانية. فالدين بمنظومته القيمية والأخلاقية يرسخ دعائم المجتمع، ويمنحه القدرة على مواجهة التحديات بروح جماعية قائمة على الالتزام والوعي. ومن خلال دوره في توحيد الأفراد، وتنظيم الأسرة، والإجابة عن الأسئلة الوجودية الكبرى، وترسيخ القيم الأخلاقية، يصبح الدين أساساً في بناء مجتمع متماسك يقيه من التفكك والاضطراب، ويمنحه هوية حضارية راسخة. وتتجلى هذه الفوائد الاجتماعية في أربعة محاور رئيسة:

١ – بناء الروابط الاجتماعية: يُعدّ الدين أحد أبرز العوامل الفاعلة في توحيد الجماعة الإنسانية وإيجاد حالة من الانسجام بين أفرادها، انسجام ينعكس أثره في مختلف مجالات الحياة وميادين النشاط البشري. فالدين لا يُختزل في كونه منظومة اعتقادية فحسب، بل يتجاوز ذلك ليغدو قوة قادرة على إذابة الفوارق الاجتماعية وغرس مشاعر مشتركة في النفوس تُوجه السلوك وتُحدد المواقف. وقد قيل: «أهم الروابط الاجتماعية التي تربط الأفراد بعضهم ببعض، وتؤثر بذلك في سير السياسة والتاريخ. ويكفي للدلالة على أن مكانة الدين مازالت قائمة في القرن العشرين» (الغزالي، 2005م، ص. 298). وهذا يوضح أن الدين ليس مجرد رابطة روحية، بل هو أساس في بناء الأمم وصياغة هويتها، حتى في العصور الحديثة.

٢ – بناء الأسرة: يؤدي الدين، ولا سيما الدين الإسلامي، دوراً محورياً في بناء الأسرة وتوجيهها بوصفها النواة الأولى والأهم في تكوين المجتمع. فالأسرة في المنظور الإسلامي ليست مجرد رابطة اجتماعية، بل هي مؤسسة تربوية وأخلاقية يقوم عليها تماسك المجتمع واستقراره. ومن هنا جاءت الأحكام الشرعية لتضع نظاماً دقيقاً ينظم الحياة الأسرية في مختلف جوانبها، بدءاً من العلاقات الزوجية وما يترتب عليها من حقوق وواجبات، مروراً بالعلاقة بين الأبناء والآباء والأرحام، وصولاً إلى تنظيم مسائل الإرث، لتشكل فقها خاصا بالأسرة وهو فقه واقعي: «هو فقه واقعي، يراعي الطبيعة البشرية بما فيها الفوارق الجسدية والنفسية بين الجنسين، ويراعي الحاجات الفطرية، فلا يبدلها ولا يعطلها ولا يحملها ما لا تطيق» (مركز الرسالة، د.ت، ص. 7). وهذا النص يكشف عن أنّ فقه الأسرة في الإسلام ليس تنظيراً مجرداً، بل هو منظومة عملية دقيقة تراعي الطبيعة الإنسانية وتضبطها، وتحوّل العلاقات الأسرية إلى مصدر للسكن والطمأنينة، بما يضمن استقرار المجتمع وحمايته من التفكك، ويجعل الأسرة بحقّ الخلية الحضارية الأولى التي يقوم عليها البناء الاجتماعي.

٣ – الإجابة عن الأسئلة الكبرى: يلبي الدين حاجة معرفية جماعية عبر تقديم إجابات شافية عن الأسئلة الوجودية التي ارتبطت بالإنسان منذ وجوده، مثل: من خلق الكون؟ ومن خلق الإنسان؟ وهل هناك معاد وحياة بعد الموت؟ وهي قضايا لا يملك العقل التجريبي قدرة الإجابة الشاملة عنها ليجيب الدين عنها: «والدين يجيب على هذه الأسئلة بوضوح وإتقان» (السبحاني، 2005، ج. 5،

ص. 6). ومن ثم فإن الدين يُلبي حاجة معرفية غريزية ذات طابع اجتماعي، ويمنح المجتمع رؤية موحدة حول القضايا الكبرى التي تشغل البشرية.

٤ – البُعد الغيبي والالتزام الأخلاقي: يغرس الدين في المجتمع القيم الإنسانية الكبرى مثل المحبة والتسامح والتعاون والتواضع، وينبذ الشرور والرذائل التي تُفسد العلاقات بين الناس. وقد مثلت الوصايا العشر في اليهودية مثالاً بارزاً على هذا، إذ أمرت الإنسان ــ يهودياً كان أو مسيحياً أو مسلماً ــ بالتوحيد ونبذ الشرك، وببر الوالدين، واحترام الجار، والابتعاد عن السرقة والزنا وغيرها من الوصايا الأخلاقية: «أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك. لا تقتل. لا تزن. لا تسرق. لا تشهد على قريبك شهادة زور. لا تشته بيت قريبك. لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك» (دار الكتاب المقدس، 12–17، ص. 119–120). ويكشف هذا النص أنّ كلّ الاديان حتي غير الاسلامية لا تكتفي بسن القوانين الشكلية، بل تمنح السلوك الإنساني بُعداً غيبياً متصلاً بالمسؤولية أمام الله، إذ يرتبط العمل الصالح بالثواب، والانحراف بالعقاب في يوم القيامة. ولأنّ القوانين الوضعية مهما بلغت من الدقة والصرامة لا تكفي وحدها في ردع الإنسان عن الشرور، يبقى الدين هو الذي يغرس في النفس دافعاً أصيلاً نحو الالتزام بالقيم الأخلاقية، ويجعل من البُعد الغيبي قوة رادعة تحفظ المجتمع من الانحراف وتضمن استمرارية السلوك الفاضل عبر الأجيال.

ثالثاً: حل المشكلة الإجتماعية "التوفيق بين الذاتية والجماعية":

تتمثل وظيفة الدين الاجتماعية في قدرته الفريدة على معالجة ما أطلق عليه الشهيد الصدر « المشكلة الاجتماعية التي تحول بين الانسانية وتكاملها الاجتماعي ، هي التناقض القائم بين المصالح الاجتماعية والدوافع الذاتية» (الصدر، 2003، ص. 307). إنّ هذه المشكلة هي التي تتحكم في سلوك الأفراد. فبينما قد يخدم الدافع الذاتي المصلحة العامة عرضاً ــ كمن يصنع دواءً لنفسه فينتفع به المجتمع ــ إلا أنه في حالات كثيرة يتحول إلى عائق مدمر؛ مثل احتكار الثروات أو امتناع الأغنياء عن أداء حقوق الفقراء حفاظاً على امتيازاتهم الخاصة، مما يخلق صراعاً مريراً بين مصلحة الفرد ومصلحة الأمة. إنّ العجز الجوهري للمناهج المادية يكمن في عدم قدرتها على إيجاد حل لهذه المعضلة؛ إذ لا يمكن لتلك المناهج إقناع الإنسان بالتنازل عن لذائذه الموقوتة من أجل الآخرين من غير مقابل مادي ملموس. وهنا يبرز الدين بوصفه القوة الوحيدة القادرة على التوفيق بين الدوافع الذاتية الخاصة والمصالح الاجتماعية العامة عبر ما يمتلكه من طاقة روحية فاعلة تعيد بناء رؤية الإنسان لذاته وللكون. ويقوم الدين بحل هذه المشكلة من خلال محورين أساسيين:

١ – إعادة صياغة مفهوم الربح والخسارة: يعمل الدين على إعادة بناء رؤية الإنسان لمفهوم الربح والخسارة، فينقله من الإطار التجاري المادي الضيق إلى إطار إيماني أسمى، حيث لا يُنظر إلى

التنازل عن منفعة شخصية لصالح الجماعة بوصفه خسارة، بل يُعد ربحاً حقيقياً في ميزان الوجود الخالد. فالمكاسب في المنظور الديني لا تقتصر على الجانب المادي، بل تشمل البعد الروحي والمعنوي الذي يمنح الإنسان معنى أعمق لحياته وسلوكه. إنّ مفهوم الربح في التصور الإسلامي ينقل الإنسان من الإطار التجاري المادي الضيق إلى إطار إيماني أسمى، فيرى الفرد أن تنازله عن منفعة شخصية لصالح الجماعة ليس خسارة، بل هو ربح حقيقي في ميزان الوجود الخالد: «يختلف مفهوم الربح في الاقتصاد الإسلامي مع الاقتصاد الوضعي فقد اتسع مفهومه في الإسلام فيشمل المفهوم الروحي والمادي معا ، ولا ينفصل كل منهما عن الآخر» (حسناء ديالمه، 2010، ص. 359).

٢ – التعويض المعنوي والأبدي: يمنح الدين الإنسان القدرة على التضحية بوجوده المحدود في سبيل المجتمع، إيماناً منه أنّ هذا الوجود ما هو إلا تمهيد لحياة أبدية ونعيم دائم. ومن هنا تتحول الغريزة الفردية من محرك أناني يسعى وراء مصالحه الخاصة إلى طاقة حضارية تسهم في إعمار المجتمع وتحقيق التكافل الاجتماعي تحت رقابة الضمير الأخلاقي المرتبط بالخالق. «فالمال بالنسبة للمؤمن الذي تحلّى بالجود والكرم والرأفة وتخلّق بأخلاق اللّه سبحانه، يعتبر رأس مالٍ للاتجار من أجل الآخرة ووسيلة للسفر نحو النعيم الأبدي، ومنبع خيرٍ في الدنيا والآخرة» (أنصاريان، 2004، ص. 262). إنّ الدين يعيد صياغة نظرة الإنسان إلى المال والوجود، فلا يراه مجرد وسيلة دنيوية محدودة، بل يجعله أداة للارتقاء الروحي والاستثمار الأبدي. وبذلك يصبح الدين هو الحل الفيصل والمحرك الأساس الذي يضمن استقرار البناء الاجتماعي واستدامته، ويحقق التوازن بين الذاتية والجماعية في مشروع حضاري متكامل، إذ تتكامل المصالح الفردية مع المصلحة العامة تحت مظلة الإيمان والالتزام الأخلاقي.

المبحث الرابع: التكامل بين الدين والعلم ومخاطر سوء الفهم والاستغلال

يأتي هذا المبحث ليُسلط الضوء على جانب بالغ الأهمية في مسيرة بناء الإنسان، وهو العلاقة بين الدين والعلم، لا من زاوية التأصيل المعرفي النظري، بل من زاوية النقد الاجتماعي والوظيفي. وهو يركّز على أزمة الإنسان المعاصر في علاقته بالعلم، ويستعين بالمفاهيم الدينية لتوضيح مواطن الخلل والانحراف، وكيفية تجاوزها عبر رؤية تربوية وسلوكية تجعل من الدين والعلم جناحين متكاملين في مشروع بناء الانسان. ويمكن تصور أربعة محاور رئيسة توضح أبعاد هذه العلاقة وتكشف عن المخاطر والفرص الكامنة فيها:

١ – التكامل الوظيفي بين العلم والدين: إنّ انطباع صورة الشيء في الذهن أو «حضور صورة الشيء عند العقل» (المظفر، 1383هـ، ص. 13). كما يعرف المناطقة العقل، هو الخطوة الاولى في مسيرة الوصول إلى العلم الذي هو اسمى ما تميز به الإنسان وهو السبيل لتطوير الحياة واستثمار طاقات الطبيعة.

أما الدين، فإنه يتجاوز حدود الإدراك البشري ليحمل أهدافاً كبرى مثل إرساء العدالة والرحمة وتحقيق السعادة الأبدية. والعلاقة بينهما علاقة تكامل لا تضاد؛ فالدين يتمم القيم الأخلاقية ويحولها من فضائل نظرية إلى سلوك عملي، فيترجم الرحمة والإنصاف إلى واقع معاش، ويجعل من العلم أداة للبناء الإنساني لا وسيلة للهيمنة أو الاستغلال

٢ – : قصور المناهج المادية: إنّ الاعتقاد بأنّ التقدم العلمي وحده قادر على تحقيق السعادة الإنسانية يُعدّ تصوراً ناقصاً؛ لأنّ العلم ــ مهما بلغ ــ يظل محصوراً في بناء الجسد ورفاهيته، بينما يغفل البعد الروحي والأخلاقي الذي هو جوهر استقامة الحياة. وحتى التجربة الاجتماعية الغربية في رفض الدين لم تكن ثمرة دراسة علمية دقيقة، بل قامت على أسس فلسفية نظرية مجردة، كما أشار الشهيد السيد محمد باقر الصدر بقوله: «إن النظام الاجتماعي الذي آمنت به أوروبا والمبادئ الاجتماعية التي نادت بها وطبقتها، لم تكن نتيجة لدراسة علمية تجريبية، بل كانت نظرية أكثر منها تجريبية، ومبادئ فلسفية مجردة أكثر منها آراء علمية مجربة» (الصدر، 1400هـ، ص. 30). ومن هنا يتضح أنّ الاقتصار على العلم وحده يعجز عن بناء الإنسان الكامل، وأنّ حضور الدين ضرورة تربوية وسلوكية تمنح النفس طمأنينتها قبل أن تمنح الجسد رفاهيته، ليكتمل بذلك البناء الإنساني في أبعاده المادية والروحية معا.

٣ – مخاطر سوء الفهم والاستغلال للدين: على الرغم من عظمة الدين ودوره في بناء الانسان، إلا أن سوء فهمه أو استغلاله قد يحوله إلى خطر يهدد البناء الإنساني في مجالات الحياة المختلفة. ففي المجال السياسي قد يُستعمل الدين لتبرير الاستبداد وتخدير الشعوب بجعلها في حالة خضوع وانتظار للموت للخلاص من الظلم والاستبداد. وقد نسب إلى ملك فرنسا قوله: «الدين ضروري لكلّ النّاس، لكنّه أكثر ضرورة في المستعمرات الآهلة بالعبيد التي لا يمكن أن تحوي أملاً في حياة أفضل إلا بعد الموت» (الشحود، ج. 38، ص. 5). وهذا الاستغلال هو جعل كارل ماركس يقول كلمته الشهيرة "الدين افيون الشعب" في كتابه: نقد فلسفة الحقّ عند هيغل. بمعنى أنّه مُسكن يُخفف عن المظلومين قسوة الواقع ويُعزيهم عن بؤسهم. فإن الفهم الخاطئ للدين يؤدي إلى اختزاله في مظاهر شكلية وشعارات فارغة، مع إهمال قيم العدل والتراحم التي تشكل جوهر رساله الدين. وبدلاً من أن يكون الدين محرراً للإنسان من الخوف والجهل، يتحول في حال استغلاله إلى أداة قمع تفقد وظيفتها التربوية والبنائية، وتُبعده عن دوره الأصيل في بناء الإنسان والمجتمع.

قد اتضح أنّ العلاقة بين الدين والعلم ليست علاقة تضاد أو صراع، بل هي علاقة تكامل وظيفي يهدف إلى بناء الإنسان في أبعاده المادية والروحية معاً. فالعلم يمده بأدوات الفهم والاكتشاف، والدين يمنحه القيم والغايات التي توجه هذا الفهم نحو الخير والعدل. ومن هنا تتأكد أهمية الوعي الديني بوصفه الضمانة الحقيقية لصيانة الدين من الانحراف، وإعادته إلى وظيفته الأصيلة في التربية

والبناء السلوكي، ليكون الدين والعلم معاً ركيزتين أساسيتين في مشروع النهضة الحضارية، ويحققان للإنسان المعاصر التوازن النفسي والاجتماعي الذي يضمن استقامة الحياة واستدامة المجتمع.

الخاتمة

بعد استعراض المباحث الأربعة وتحليلها، يمكن القول إنّ الدراسة قد أفرزت مجموعة من النتائج والرؤى الأكاديمية التي تمثل خلاصة ما طُرح من أفكار، وتُبرز الدور الجوهري للدين في بناء الإنسان فرداً ومجتمعاً. هذه النتائج لا تقف عند حدود التنظير، بل تُقدَّم في إطار تربوي ووظيفي يهدف إلى معالجة أزمات الإنسان المعاصر، وتوضيح كيف يسهم الدين في صياغة شخصية متوازنة تجمع بين العقل والروح، وبين الفردية والجماعية. وانطلاقاً من هذا السياق، يمكن تلخيص أبرز ما توصّل إليه البحث في أربعة محاور رئيسة:

أولاً: استخلاص النتائج العامة: لقد برهن البحث على أنّ الدين يشكل ظاهرة إنسانية أصيلة وقوة أصيلة في بناء الانسان لا يمكن فصلها عن طبيعة الإنسان وفطرته. ولم يعد الدين مجرد منظومة من العقائد والطقوس، بل هو مشروع عملي لصناعة الكيان الإنساني بجميع أبعاده المادية والمعنوية. وتتجسد أهم النتائج في أنّ الدين الإلهي، استناداً إلى الوحي، هو الأداة الأكثر كفاءة في صياغة الانسان القادر على التوازن بين مقتضيات العقل ونزعات الغريزة.

ثانياً: التدين كحلقة وصل وظيفية: إنّ «التدين» هو المحرك الفعلي والوجه العملي للدين؛ فهو الحلقة التي تربط بين المعرفة النظرية والسلوك العملي. وإنّ البناء الفطري للإنسان لا يكتمل إلا عبر ممارسة دينية واعية تحوّل القيم إلى ملكات راسخة، مما يسهم في تنظيم الطاقات الفطرية وتهذيب الغرائز وتوجيهها نحو البناء الحضاري بدلاً من التشتت أو الانحراف السلوكي.

ثالثاً: البعد الاجتماعي وحل المشكلة الإنسانية: إنّ الدين يمثل الضمانة الوحيدة لتحقيق الاستقرار المجتمعي من خلال قدرته الفريدة على "حلّ المشكلة الاجتماعية للإنسان"؛ أي التوفيق بين الدوافع الذاتية والمصالح العامة. إنّ القوانين الوضعية والمناهج المادية قد تحقق رفاهية الجسد، لكنّها تعجز عن صياغة الضمير الأخلاقي الذي يجعل الفرد يضحي بمصلحته الشخصية المؤقتة في سبيل المصلحة العامة، وهو ما يجعل الدين حاجة اجتماعية وضرورة حضارية.

رابعاً: التكامل المعرفي وحماية المعطى الديني: إنّ العلم والدين ليسا في موقع تضاد، بل هما جناحا رحلة الكمال الإنساني؛ فالعلم يوفر الأدوات والوسائل، والدين يمنح الغايات والقيم. كما حذرت الدراسة من أنّ خطورة الدين رغم اهميته للإنسان تكمن في سوء الفهم والاستغلال الذي قد يحوله إلى أداة تخدير أو قمع، مما يتطلب تعزيز الوعي الديني الاجتماعي.

وفي الختام، توصي هذه الدراسة بضرورة أن تنتقل البحوث الدينية من الاقتصار على الأطر الكلامية الجدلية المحضة إلى الأطر التربوية والوظيفية التي تبحث في كيفية استثمار الدينية المقدسة

في معالجة أزمات الإنسان المعاصر. فكما أنّ الجانب العقائدي والفكري للدين يرسخ الإيمان ويؤسس للمعرفة، فإن جانبه التربوي والسلوكي لا يقل أهمية، إذ يشكل الأداة العملية لترجمة القيم إلى سلوكيات واقعية، ويضمن أن يكون الدين قوة تسهم في بناء وتهذيب الغرائز، وتنظيم الطاقات، وتحقيق التوازن النفسي والاجتماعي في حياة الإنسان .إنّ الفهم الصحيح للدين، كما بينت فصول هذا البحث، هو الكفيل بإعادة الإنسان إلى إنسانيته المفقودة، وترسيخ مجتمع يقوم على قيم الحقّ والعدل والتكافل.

وبهذا، يكتمل بناء هذا البحث، ليكون إضافة علمية تسلّط الضوء على الدور الجوهري للدين في صناعة الفرد وبناء المجتمع، وليؤكد أنّ الدين، حين يُفهم فهماً صحيحاً ويُمارس ممارسة واعية، يغدو أساساً للنهضة الحضارية وضمانة لاستقامة الحياة، ومصدراً لإعداد إنسان متوازن قادر على التفاعل الإيجابي مع ذاته ومجتمعه والكون من حوله.

==========

المصادر

القرآن الكريم.

ابن عربي، محيي الدين. (1972). الفتوحات المكية (عثمان يحيى، محقق؛ إبراهيم مدكور، مراجع؛ ج. 1). الهيئة المصرية العامة للكتاب.

أنصاريان، حسين. (2004). الأسرة ونظامها في الإسلام (دار العرفان، إعداد وتنظيم؛ ط. 1). مؤسسة أنصاريان للطباعة والنشر.

البروجردي، حسين. (د.ت). جامع أحاديث الشيعة (ج. 20). (د.ن). (العمل الأصلي نُشر في القرن الرابع عشر الهجري).

المجلسي، محمد باقر. (2003). حلية المتقين في الآداب والسنن والأخلاق (خ. ر. العاملي، مترجم ومحقق؛ ط. 1). منشورات ذوي القربى. (العمل الأصلي نُشر في القرن الحادي عشر الهجري).

المازندراني، بشير المحمدي. (2004). مسند أبي بصير (م. الوفائي، مراجع؛ ط. 1، ج. 1). دار الحديث للطباعة والنشر.

المظفر، محمد رضا. (1383هـ). المنطق. مؤسسة النشر الإسلامي.

مركز الرسالة. (د.ت). آداب الأسرة في الإسلام. مركز الرسالة.

مركز الرسالة. (د.ت). الرفق في المنظور الإسلامي. مركز الرسالة.

العياشي، محمد بن مسعود. (د.ت). تفسير العياشي (هاشم الرسولي المحلاتي، محقق؛ ج. 1). المكتبة العلمية الإسلامية.

آل عبد الجبار، سليمان بن أحمد. (1430هـ). إرشاد البشر في شرح الباب الحادي عشر (ضياء بدر آل سنبل، محقق؛ ط. 1). مؤسسة طليعة نور.

الغزالي، محمد. (2005). مع الله: دراسات في الدعوة والدعاة (ط. 6). نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

الكتاب المقدس: كتب العهد القديم والعهد الجديد. (د.ت). دار الكتاب المقدس في العالم العربي.

السبحاني، جعفر. (د.ت). أضواء على عقائد الشيعة الإمامية. مؤسسة الإمام الصادق.

السبحاني، جعفر. (2005). رسائل ومقالات: تبحث في مواضيع فلسفية وكلامية وفقهية واجتماعية (ط. 1، ج. 5). مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام.

الصدر، محمد باقر. (2003). اقتصادنا (مكتب الإعلام الإسلامي – فرع خراسان، محقق؛ ط. 2). مؤسسة بوستان كتاب قم. (العمل الأصلي نُشر عام 1961).

الشحود، علي بن نايف. (د.ت). موسوعة الرد على المذاهب الفكرية المعاصرة (ط. 9، ج. 38). [ناشر غير محدد].

الطباطبائي اليزدي، محمد كاظم. (1426هـ). حاشية فرائد الأصول (ط. 1، ج. 1). دار الهدى.

التسخيري، محمد علي. (2003). محاضرات في علوم القرآن (ط. 1). المنظمة العالمية للحوزات والمدارس الإسلامية (سازمان مدارس خارج كشور).

ديالمه، حسناء. (2010). الفكر التربوي الإسلامي عند الإمام جعفر بن محمد الصادق (ط. 1). المكتبة العصرية.